نبذة حول المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية لجبل تافرنت

مراد زرارقة
أستاذ محاضر -جامعة قالمة-

.

يزخر جبل تافرنت بعدد من المخلّفات الأثرية التي تعود إلى مختلف الحقب التاريخية القديمة، وما هو مبيّن على الأطلس الأثري لستيفان قزال لا يعكس حقيقة الثراء الكمّي والنوعي لإحدى الفترات التي تمثّل البصمة المحليّة والمتمثّلة في العمارة الجنائزية النوميدية المبكّرة أو النوميدية بصفة عامّة، التي نجدها منتشرة طبقا والرقعة الجغرافية لمختلف قبائلها، حيث تتوزّع بكثافة وبتعداد يتماشى وعدد السكّان النوميديين قديما. فالانتشار الواسع للمعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية، لا يقتصر تركيزه بالشرق الجزائري على منطقة قسنطينة معقل الماسيليين فحسب، بل نجده يمتدّ على كل السلاسل الجبلية والهضاب المعزولة للأطلس التلّي والصحراوي بأعداد معتبرة تقدّر بعشرات الآلاف. وما يهم في هذا الموضوع يكمن في إبراز أهم خصائص العمارة الجنائزية المندرجة في وسط بيئي سمح باستقطاب العنصر البشري لبناء هذا النوع من المعالم بسلسلة جبال تافرنت إن صحّ هذا التعبير على مجموعة من الجبال والمرتفعات التي تشكّله والتابعة إداريا لكل من ولايتي أم البواقي وخنشلة. لقد أخذنا هذه المنطقة كعيّنة لإبراز مدى أهميّة واتساع رقعة هذه العمارة الجنائزية المحليّة والمتطوّرة والتي كثيرا ما أنسبت إلى ثقافات ومجتمعات أوروبية، التحقت منذ مدّة ضاربة في التاريخ ببلاد المغرب القديم عبر البحر الأبيض المتوسط مرورا بمضيق جبل طارق من جهة ومختلف الجزر المشكّلة كهمزة وصل للجنوب الإيطالي والسواحل التونسية من جهة أخرى، من طرف باحثين فرنسيين شغّلوا التاريخ والآثار لخدمة أهداف استيطانية أمثال ألبيرتيني، وألازار، وبال، وبروديل، وقوتيي، ومارسي، وريقاس، وسينتاس، وقزال. وحذا حذوهم ج. كامبس الذي ضرب على وتر الهويّة والوحدة التي تعرّض لها في أطروحته تحت عنوان: "في أصول بلاد البربر، معالم وطقوس جنائزية لفجر التاريخ بشمال إفريقيا" أين نجده قد شغل هذه المسألة التي منحها قسطا وافرا في مدخل رسالته لتحضير القارئ لقبول فكرة العجز التاريخي للبربر وانفتاحهم على ثقافات وعادات وفدت عليهم من الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط عبر صقلية ومضيق جبل طارق. فمسألة الوحدة - حسب رأيه- كانت غائبة منذ تشكيل ونشأة المجتمع البربري القديم خلال العصر الحجري القديم المتأخر مع الحضارة المسمّاة بالايبيرومورية والحضارة القفصية، وقد تناسى الباحث ما وقع في أوروبّا مع تسلسل أربع حضارات خلال الباليوليتي الأعلى، وهي البيريغوردية، والأورغناسية، والسوليترية وأخيرا المجدلية. وكان يظن سابقا أنّ الحضارات الأربعة تتوافد على بعضها البعض على منوال خطي، لكن الأبحاث التي أجريت فيما بعد بيّنت أنّ

البيريغوردية والأورغناسية متزامنتان بل تشكلان مركّبا صناعيا واحدا[1]. ونحن نتسائل لماذا لم تذكر مسألة الانفكاك واستقلالية الحضارات الأوربية الأربع في جهات متباينة غير موحّدة على الرغم من تزامنها التأريخي.

ويضيف كامبس بأن البربر القدامى ولّوا ظهورهم إلى إفريقيا، وانفتحوا نحو البحر المتوسط (الشمال) بفضل الملاحة، مع احتفاظهم بعاداتهم الطقوسية الإفريقية. لهذا الأمر لم يقيموا أنصابا حجرية، ولم ينحتوا تماثيل معبود الموت. ويضيف بأنّه، بعد الانكسار الحاصل بين شمال إفريقيا والمناطق الصحراوية بسبب الاضطرابات المناخية المتمثلة في الجفاف، استقبلت المناطق البربرية لشمال إفريقيا التأثيرات النافعة من وراء البحر المتمثلة في حلول الأنصاب الحجرية التي أخذ منها الشكل وليس الروح[2]. وعلى إثر هذا التصريح الخاطئ والتمييزي، المتمثّل في استعماله لعبارة "التأثيرات النافعة من وراء البحر" التي توحي بأنّ كل ما صدر من السكّان المحليين يعدّ سلبيا وحقيرا. وحتى لو صدّقنا بفكرة حلول هذا النوع من المعالم من أوروبّا، فلا نرى حقيقة ودرجة هذه المنفعة المزعومة المتمثّلة في شكل النصب التي لم نجد لها تفسيرا واضحا. فعلى عكس ما جاء به، فإنّ الأنصاب الحجرية العمودية، التي نجدها في أماكن ومناطق عدّة بشمال إفريقيا في شكل انتشار مكثّف على المناطق الصحراوية، تحيط بمختلف معالمها شبه الميغاليثية بطريقة فردية وأخرى جماعية. وإذا ما صدّقنا رواية الحواجز الطبيعية القاهرة التي جعلها كامبس ذريعة في بسط نظريته حول الأصول الأوروبية لهذه الأنصاب فكيف وصلت إذن إلى مناطقنا الصحراوية؟

تكمن الإجابة عن أصحاب هذا المنهج في نوعيّة المعالم الجنائزية بمختلف أنماطها المنتشرة بأوروبّا وجزر البحر الأبيض المتوسط، بأنّها ليست ممثّلة في شمال إفريقيا عدا بعض أوجه التشابه منحصرة في نوعين كالحوانيت الشرقية الأصل والتلال الجنائزية التي نجدها ضاربة في التاريخ في مناطقنا الصحراوية. أمّا الدولمن Dolmens فهي على الأقل غائبة في المقابر الميغاليثية للشرق الجزائري مثلها مثل المعالم الأخرى التي لا نجد لها أثرا عندنا مثل النوراغي Nuraghes والتورّس Torres والتلايوت Talayot والنافيتا Navetas ... المنتشرة في أوروبّا وجزر البحر المتوسّط بمعيّة الدولمن، فالتساؤل المنطقي الذي يطرح نفسه قبل كل شيئ يكمن في أسباب ودواعي قدوم أو استيراد الدولمن دون غيره من المعالم الأوروبيّة المذكورة؟. هذا ما يستدعي إعادة النظر بجديّة في تحديد وإبراز هويّة وأنواع المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية المحليّة بشمال إفريقيا. فالمعالم التي مازال يطلق عليها في شمال إفريقيا مصطلح الدولمن، كنّا دوما نسمّيها بالمصاطب نظرا لشكل غرفها الجنائزية المصطبيّة الشكل. فالمصاطب تختلف عن الدولمن الأوروبي من حيث الحجم والبنية والتركيبة العامة للقبر، فلها صبغة

[1]- سحنوني محمّد، ماقبل التاريخ.د.م.ج. الجزائر، 1999.ص.110.

[2]- Camps G., 1961, Aux Origines de la Berbèrie, monuments et rites funéraires protohistoriques de l’Afrique du nord. p.207.

محلية عريقة تتمثّل من حيث العمارة في تطوّر الغرف الجنائزية الموجودة أصلا على هيئة صناديق حجرية تحت التلال الجنائزي، والتي ما فتئت أن ترتفع نحو الأعلى بإضافة صفوف متراصّة للحلقات والسياجات الحجرية الدائرية والمربّعة والمستطيلة لتتطوّر بما يعرف بالبازينات أو الشوشات والتي مع ارتفاعها عن سطح الأرض ارتفعت معها هذه الغرف. فالنمط المعروف بالدولمن والذي نراه في أيّامنا بهذه الهيئة، لم يكن في القديم بهذه الكيفية بل كان مغروسا داخل فضاء البازينا ذات القاعدة الأسطوانية أو المدرّجة، ومع زوال صخور الحلقات المتراصّة الواحدة فوق الأخرى مع مرور الزمن بعوامل بشرية أو طبيعية، زالت بالضرورة التربة والشظايا المحصورة بين الغرف المصطبية والحلقات المذكورة وبالتالي تتكشف الغرف التي تعرّضت لهذه العوامل بالكيفية التي نراها عليها حاليا.

كما يمكننا تشغيل نوعية المرفقات الجنائزية المصحوبة مع الموتى والمتمثّلة أساسا من أواني فخّارية جنائزية وطقوسية ومنزلية مصنوعة بالقولبة عموما وهي ذات طابع وأصول محلّية في بادئ الأمر، لتتأثّر فيما بعد بالثقافة البونية ومن بعدها الرومانية. ولم يتم العثور إلى غاية الآن على أيّة لقى ذات صلة بتلك المنتمية لحضارات ولأجناس سيلتية أو درويدية.

<u>الموقع الجغرافي لمعالم سلسلة تافرنت:</u>

على غرار كل جبال المنطقة، فهي موجّهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، محدودة من الجنوب والجنوب الغربي بكل من السبيخة بسافل بلقيطان، وواد مراح السلطان، وجبل الشطّاية. ومن الغرب كل من الأحواز الشرقية لمدينة خنشلة وجبل المنشار. ومن الشمال الشرقي والشمال، فتطلّ على سهول الحراكتة المشرفة على بحيرة "قرعة الطارف" ومسكيانة. أمّا من الشرق والجنوب الشرقي، فهي موازية لواد مسكيانة. تظهر هذه الكتلة وكأنّها في عزلة عن باقي السلاسل الجبلية، بل هي مرتبطة جنوبا بجبال الشطّايا والمنشار المؤديان إلى قلب جبال الأوراس، وشمالا بجبال قرن لحمر والزازية والباردو المطلّة على عين البيضاء.

تعود تسمية تافرنت إلى أصول بربرية قد تعني "المخابئ"، كما قد تكون مشتقّة من يفرن بمعنى "تنقية" "تقشير" أو "تجريد" ولهذه المعاني الأخيرة أكثر من دلالة حيث نجد جل سطح هذه السلسلة الجبلية قد تمّت تهيئته عن طريق انجاز تربيعات ومسطّحات زراعية التي لا يمكن إنجازها إلاّ بجهد عضلي وعناء كبيرين من قبل مجتمع ذو تنظيمات اجتماعية محكمة، تتطلّب العملية في هذا الإنجاز "استصلاح" و"تطهير" السطح من الحجارة والصخور وبإعادة استعمالها في رص المسطّحات والتربيعات الفلاحية (الصورة 1و2). أمّا في الفترة الرومانية فقد كان جبل تافرنت يدعى بجبل روفينا *MONS RVFINA*

الصورة 1: صورة جويّة للتربيعات الفلاحية بجبل تافرنت. الصورة 2: الصورة 2: نموذج للمسطّحات الزراعية

تتربّع من فوقه عدّة تجمّعات جنائزية، وتبقى المعالم الأكثر تعدادا وتركيزا منتشرة على الحواف والمنحدرات الشمالية الغربية من هذه السلسلة، وتطلّ على السهول المحادية لبحيرة الطارف. متمثّلة في مقابر الكتف المنتشرة على جبل من نفس التسمية بمقربة من حمّام الكنيف. وعلى مسافة قصيرة من هذه الأخيرة تقدّر بحوالي 4 كلم نحو الشمال الشرقي، تتربّع مقبرة قي غاية الأهمية تدعى بكدية القمح التي تبعد أيضا بحوالي 16 كلم على مسار العصفور شمال شرق مدينة خنشلة، وهو موقع غير محصور في رقعة واحدة بل مترامي الأطراف يمتدّ جنوبا إلى غاية المرتفعات المطلّة على شعبة لاخرة[3]، وبصفة عامّة فهو يحتلّ وضعية استراتيجية بحكم إطلاله على كل المناطق الشمالية على أمدّ البصر كسهول واد نيني، ومتوسة، وبغاي، وبحيرة (قرعة) الطارف إلى غاية عين البيضاء، وجبل سيدي رغيس وبوغرارة السعودي.

وعلى بعد 3 كلم نحو الشمال الشرقي من كدية القمح، تتربّع المقبرة الوحيدة التي تمّ الإشارة إليها على جبل تافرنت بجملة واحدة في أطلس قزال "معالم ميغاليثية في الجنوب الغربي لبئر متيرشو[4]"، وتقع قرب عين الحجر على المرتفعات المطلّة على واد نيني (الخريطة1).

تتوزّع المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية وتنتشر بشكل متباين من ناحية إلى أخرى (المقطع الطوبوغرافي1). في وسط جلمودي متكوّن أساسا من الصخور الجيرية ذو طيّات وفّرت طبقاته صخور تتكسر بكيفيّة تسمح باستغلالها واستعمالها في بناء المعالم الجنائزية وفي رص جدران التهيّئات الفلاحية بعين المكان.

3 - لهذه التسمية "شعبة لاخرة" أكثر من معنى في مسائل ارتباطها بالمعالم الميغاليثية وشبه الميغاليثية، أين نجدها تحت تسمية "أخنّاق الآخرة (خنقة الآخرة) بموقع إيشوقّان الفاصلة بين البلدة النوميدية المحصّنة ومقبرة بودرييس، وقد يدلاّن في كلتا الموقعين على حدود المقابر أو بعبارة أخرى عن حدود فضاء الأحياء عن التجمّعات الجنائزية المدرجة ضمن الحياة الأخرى.

4 - Gsell S., Atlas archéologique de l’Algérie. Flle. 28, N° 96, P.5.

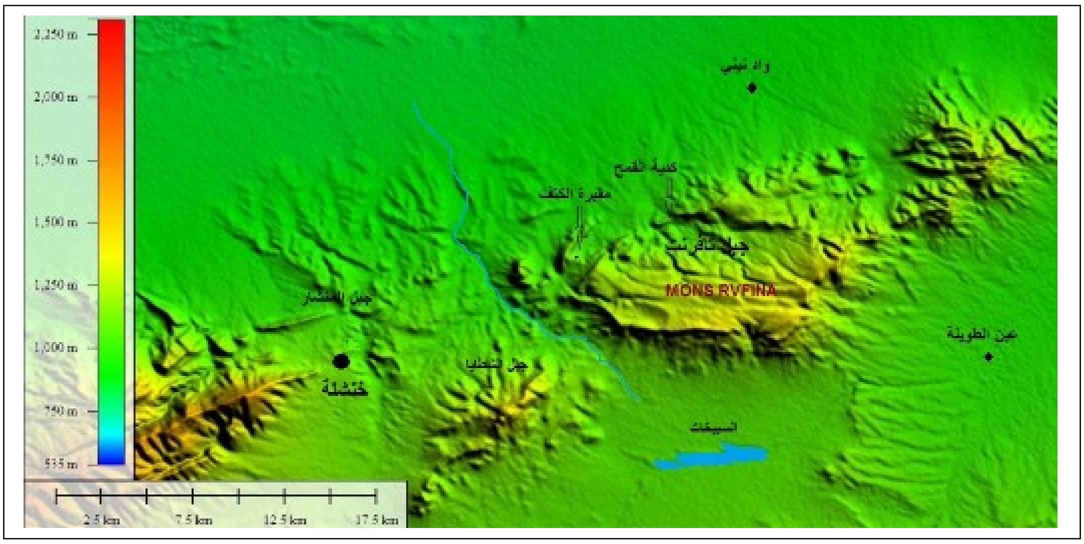

الخريطة 1: المواقع الميغاليثية لجبل تافرنت ضمن تضاريس المنطقة

المقطع الطبوغرافي 1: مقطع طوبوغرافي شمال شرقي-جنوب غربي، يقطع مقابر: عين الحجر، كدية القمح والكتف.

<u>كيفيات قلع الصخور المستعملة في البناء:</u>

لاحظنا طريقتين لقلع الصخور المستعملة في بناء المعالم الجنائزية والتهيّئات الفلاحية حيث بقيت الطريقة الأولى والمتمثّلة أساسا في عمليّة القلع الطبيعي أين تتكسر وتنزع الصخور من أماكنها الجلمودية الأصلية بصورة طبيعية نتيجة تواجد تصدّعات قديمة ناتجة عن الإلتواءات أو انزلاق الكتلة الجيرية فوق طبقات صلصالية. تنفلق الصخور طبيعيا على مستوى تواجد هذه التصدّعات بحكم الظواهر الطبيعية مثل التمدد والانكماش الناتج عن التغيرات المناخية (المنطقة بارة شتاءا وحارة صيفا)، وتستغلّ هذه الحجارة التي يتحصّل عليها على ثلاثة أنواع في تشييد مختلف أجزاء وعناصر المعالم الجنائزية والتهيّئات الفلاحية.

والنوع الأوّل وهو انكسار عمودي يغلب عليه الطابع التكعيبي المتقارب الأبعاد والأحجام الذي يصلح ويتناسب مع الكتل الحجرية الموضوعة في الحلقات والسياجات الحجرية المحيطة بالغرف الجنائزية (الصورة 3)، وبعض العمادات العمودية التي توضع عليها البلاطات والموائد الأفقية للقبور.

أما النوع الثاني فهو انكسار أفقي طبيعي لمختلف الطبقات الجلمودية، يسمح بالحصول على بلاطات كبيرة يكون مقدار طولها وعرضها أكبر بكثير إذ ما قورن بسمكها المتراوح عموما بين 0,25 م

و0.75 م. وتستعمل بعد تعديل حوافها، في العمادات الأحادية وموائد الغرف الجنائزية وحتى الحلقات والسياجات الحجرية المحيطة بها (الصورة 4 و5)

الصورة 3: استغلال التصدّعات الطبيعية في قلع الصخور.

الصورة 4: انفلاق طبيعي أفقي

الصورة 5: قلع الموائد من عين المكان

وتكمن الطريقة الثانية في عمليّة القلع الإرادي الذي يتم بفضل يد الإنسان، يستعمـــل فيه وسائل وعتاد فولاذي متنـــوع ويد عاملـــة مختصّة في العديد من الحالات، ويتم بواسطـــة تقنية استعمال المخارز، وتكون إمّا على صخور معزولة أو في محاجر حقيقية وتكمن تقنيتها في استحداث ثقب متتالية غائرة بشكل شبه منحرف تدعى بالمخارز (الصورة 6) على واجهتي الجلمود المراد تكسيره بواسطة نقّار الحفر الذي يمسك بيد واحدة أو بالنقار الذي يمسك باليدين، ونفس النتيجة يمكن الحصول عليها بواسطة المطرقة ذات الكتلة الصغيرة باستعمال الإزميل.

أما عن طريقة انفلاق الصخور المراد قلعها بهذه الكيفيّة، فقد تطرّق لها قزال بمنهج يستحيل تحقيقه، حيث يقول بأنه " في بعض الأماكن نميّز بقايا محاجر، أين يحفر العمّال سلسلة من الثقب الصغيرة غير متباعدة فيما بينها بواسطة عتاد معدني، ثم تدرج بداخلها قطع خشبية التي تبتل بكيفية تفلّق الصخرة "[5]

[5] - Gsell S., Les monuments antiques de l’Algérie. T. 1, Paris, 1901. P. 27

ويقصد قزال بالتأكيد ظاهرة انتفاخ الخشب وزيادة حجمه بعد عملية الامتصاص، الذي يضغط على جوانب الثقب.

وذهب كل من كالفي وبايلي دي هيرمون المذهب نفسه عندما عثرا بموقع مشرع الصفا بتيارت على بقايا خطية لثقب محفورة بكيفية متوازية ومائلة، تقدر أبعادها بـ 06 سم طولا و02 سم عرضا و03 سم عمقا ويتجلى بأن هذه الثقب، ما هي إلاّ علامات لتقنية قلع الصخور عن طريق الانفلاق بواسطة قضيب خشبي شديد الجفاف، يدرج بداخل الثقب ثم يبلّل وبالتالي يفلّق الصخرة[6]. لم نستوعب نجاعة هذه الطريقة في إنفلاق الصخور لأسباب تقنية نرجعها لما يلي:

يكاد يكون حجم المخارز بأبعادها منعدمة الأهمية مقارنة بقوّة ونوعية وحجم الصخرة المراد قلعها والمتكوّنة أساسا من صخور جيرية صلبة. ففي العديد من الأحيان دنت أبعاد المخارز إلى 09 سم طولا و02 سم عرضا و07 سم عمقا، وهو حجم بسيط ولا معنى له مقارنة بحجم الكتلة وصلابتها.

لا يسمح شكل المخارز بتاتا بضغط الخشب على جوانب الكتلة الحجرية، نظرا لبنيتها المستطيلة أحيانا وشبه المنحرفة في أغلب الحالات، هذا الشكل الأخير ذو زوايا منفرجة نحو السطح الخارجي للكتلة الحجرية أو الجلمود الصخري، يجعل من انتفاخ الخشب يفيض وينزلق نحو الجهة التي تنعدم بها المقاومة والمتمثلة في الضلع المكشوف، المطل على الهواء الطلق. ويكون الضغط من الناحية الفيزيائية أقوى بكثير على جبهة عمودية مقارنة بذلك الممارس على جبهة مائلة نحو الأعلى، التي تكسّر الضغط وتجعله يتوازى مع مسار الضلع المائل وبالتالي ينزلق نحو الخارج العديم المقاومة.

ولهذه الأسباب التقنيّة والمنطقية، بالإضافة للتجربة التي قمنا بها على المنوال الذي ذكره قزال، نرى بأنّها طريقة غير مجدية بل مستحيلة على الصخور الجيرية الصلبة. فالعملية المثلى التي كانت منتهجة، بقيت سائدة إلى وقت ليس ببعيد، وتكمن في ادراج أزاميل المخارز الفولاذية داخل سلسلة من الثقب المتتالية، ذات أبعاد متفاوتة في المقادير، حيث يصل عرضها أحيانا 11 سم وهو عرض يكبر عن سمك الأزاميل بكثير، ما يستدعي وضع دعامات الحصر التي نعتقد بأنها من مادة الخشب توضع موازية لخدّي الأزاميل وهذا لسببين، ويتمثل السبب الأول في شد الأزاميل، وانتصابها داخل المخارز التي نجدها متعددة الوضعيات، فمنها المتواجدة على سطح أفقي وأخرى محفورة على جبهات عمودية فعلى هذه الأخيرة، تكون الأزاميل قي وضعية أفقية وبالتالي لا يمكنها الثبات في موضعها دون حصرها جيدا بدعامات الحصر. أما السبب الثاني فهو أساسي يساهم في انفلاق الصخر، فبعد تثبيت الأزاميل في مخارزها بالكيفية المذكورة تتم عملية الطرق عليها بالتناوب الواحدة بعد الأخرى بواسطة

---

6 - Bayle des Hermens R.De, et Calvet R., Le site de Mécherasfa sur la haute Mina, éperon barré et nécropoles. Libyca A.P.E., T. XIV, 1966, P. 367.

مطرقة ذات الكتلة إلى أن تحصر وتضغط أخاديد الأزاميل على القطع الخشبية، وبالتالي على جوانب المخارز إلى غاية حدوث الانفلاق. فيلعب قاطع الأزميل الممدود دورا في فتح الطريق وسط دعامات الحصر الخشبية بالإضافة طبعا إلى خلق نقاط ضعف عند طرقه بقاع المخراز.

الصورة 6: قلع الصخور بواسطة استحداث عدد من المخارز

<u>أنواع المعالم الجنائزية بجبل تافرنت:</u>

أهم ما يميّز المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية بالمنطقة يكمن في ثلاثة أنواع، ويعود السبب في تجسيد هيئتهم وشكلهم إلى الوسط الطبيعي المنتشرون عليه، ولم تعد حسب رأينا فكرة بناء نوع من أنواع أو نمط من أنماط المدافن إلى جنس أو مجتمع أو قبيلة ما أو حتى لمعتقد جنائزي أو ديني معيّن بل اتضح جليا من خلال العديد من المعاينات والملاحظات الميدانية التي قمنا بها على عدد معتبر من المواقع المنتشرة بالشرق الجزائري أنّ تصنيفها مرتبط بنوعيّة التضاريس والبنية الجيولوجية المتواجدة عليها وهي التي أملت على المجتمعات القديمة انتهاج بناء نمط معين دون غيره. فنجد التلال الجنائزية منتشرة في أماكن تكاد تخلو من بروز الطبقات الجلمودية الجيرية بكيفية تسمح بقلعها على شكل بلاطات أو كتل كبيرة. فقد شيّدت بواسطة الصخور وشضايا الحجارة والتربة المتوفّرة فوق سطح الأرض والمستخرجة من نفس المكان أو على جلاميد طبقية صخرية توفّر صخور مهشّمة ومتفتّتة. أمّا البازينات والمصاطب فقد أختير لتشييدها أماكن تتوفّر وتبرز فيها الطبقات الجيرية على مختلف بيئتها المباشرة خاصة منها المنحدرات والمنحدرات الشديدة أو أماكن مسطّحة صخرية بارزة فوق الأرض.

ومن ضمن المعالم الجنائزية المنتشرة فوق جلا تافرنت، نجد ما يلي:

أ- **التلال الجنائزية:**

عثرنا في الوقت الراهن على نماذج قليلة من هذه المعالم، تتموضع على المنحدرات الجنوبية والحافّة الشمالية لكدية القمح وبوجه التحديد على الذراع المطل على بحيرة الطارف. وهي ذات مقادير متباينة يصل أكبر قطر لها إلى غاية 11م، ذات شكل مخروطي مبنية بكتل حجرية منزوعة من عين المكان وتنعدم فيها التربة (الصورة 7).

الصورة 7: تل جنائزي مخروطي الشكل

تبيّن إحداها، بأنّها ذات طابع جنائزي حيث تحتوي في مركزها وعلى عمق يقارب 1م على غرفة جنائزية مستطيلة الشكل جوانبها مبنيّة بجدران متراصّة، كانت تغطّى ببلاطة واحدة أو عدّة بلاطات.

ب- **المصاطب:**

هذا النوع من المعالم يطغى تعداده على مقابر جبل تافرنت ويتفرّع إلى عدّة أنماط نستهلّها بـــ:

1- **المصاطب ذات الحلقة الحجرية الفريدة:**

فنجد هذا الصنف، متواجد على المنحدرات البسيطة، مصاطبه مندسة في سطح الأرض وتحتوي أحيانا على أربعة ركائز؛ اثنتان منها أي الجانبيتين ذات الأبعاد الطويلة، هي التي تحمل المائدة. أما الصغيرتين، فتعد بمثابة صخور تحدّد أبعاد الغرفة الجنائزية.

خصائص هذا النوع، نجده ممثلا في وجود حلقة دائرية فريدة تحيط بالمصطبة وهي ذات أقطار متفاوتة، حيث نجدها تتراوح ما بين 5 م و 8 م.

الحلقة الدائرية مشكّلة عن طريق غرس حجارة ضخمة، ذات أشكال وأحجام متباينة. ترصع الواحدة تلو الأخرى في الأرض بمراعاة الحصول على شكل دائري يحيط بالقبر. وعادة ما يملأ الفضاء الواقع بين الحلقة الدائرية والمصطبة بخليط من الحجارة والشضايا المتوسطة الحجم الممزوجة عن غير قصد

بكميّات من التربة تمنح للأرضية المحاطة بالمصطبة صلابة وقوّة في تدعيم ركائزها وشدّها أكثر عن طريق اتّكائها على الحلقة الدائرية كما تقي القبور من التعرية بجرف تربتها (الصورة 8). قد تكون تسمية هذا النمط خاطئة إذا ما أعدنا تصوّر شكل هذا المعلم قبل إتلافه جزئيا، فمن الواضح من خلال الواجهات العلوية المسطّحة والعريضة لصخور الحلقة الحجريّة المتبقيّة، قد هيّئت بهذه الكيفية قصد استقبال صف ثاني وربّما ثالث من الصخور على شكل قاعدة أسطوانة تعرف بالبازينا، وما يظهر على الصورة سوى بقايا هذا النمط المحلّي المتطور.

الصورة 8: مصطبة (بالمظهر الحالي) ذات حلقة حجرية فريدة

وتارة أخرى تضمّ الحلقات الحجرية الفريدة مصاطب بارزة (الصورة 9)، وهذا النمط يشبه بكثير المصاطب المندسة في الشكل العام للمدافن، لكن أوجه الاختلاف بينهما تكمن في شكل الغرفة الجنائزية، التي تكون هذه المرّة جد بارزة، وتعلوا سطح الأرض بكثير إذا ما قورن بالنمط السالف الذكر. ويرجع هذا الأمر إلى كبر وعلو الركائز الجانبية التي قد نفسّرها أيضا بتلف أو إعادة استعمال صفوف الصخور المشكّلة لحلقات البازينا ذات القاعدة الأسطوانية كما هو موضّح في الصورة 10.

الصورة 9: مصطبة فقدت حلقاتها الحجريّة بموقع

الصورة 10: صفي القاعدة الأسطوانية 2 و3 في طريق الزوال، لتصبح هذه البازينا مصطبة.

2- المصاطب والبازينات ذات السياج المربع:

يتربّع هذا النمط من المصاطب في كل نواحي المقبرة ونجده ينتشر بصفة استثنائية بأعداد كبيرة في كدية القمح مقارنة بالمقابر التي سبق لنا وزرناها بمختلف مواقع التراب الوطني.

تكمن خصائص هذا النمط في وجود سياج حجري مربّع الشكل عادة ما يكون ذو صف واحد أو مرصوص بعدّة طبقات "وهي في الأصل بازينات ذات سياج مربّع" (الصورة 11 و 12) مبنية من الحجارة الضخمة محاطة بغرف جنائزية مندسة في الأرض أو بارزة مطابقة لذات الحلقات الدائرية. أبعادها تتراوح من 3 م إلى 9م، تحتوي بعضها على غرفتين داخل السياج الواحد. أمّا الخاصية النادرة التي قمنا برفع ملاحظتها حصريا على موقع كدية القمح، تكمن في ضيق مسافة الفضاء الفاصل بين الغرف وسياج الحلقة الحجرية إلى أبعاد لا تفوق 0،40 م (الصورة 13).

الصورة 12: بازينا ذات قاعدة مربّعة مبنيّة بجدار متراص.

الصورة 13: فضاء ضيّق يفصل الغرفة بالسياج الحجري.

الخطوط الحجرية:

نجدها بشكل واضح في مقبرة الكتف متمثّلة في نوع من الجدران الحجرية، لم يبق منها سوى الأسس البارزة من فوق سطح الأرض بمتوسط يقدر علوه 0,40 م. مبنيّة بالنظام المزدوج عن طريق ترصيع صخور متوسّطة الحجم توضع على جانبي الجدار، ليملئ الفراغ الواقع بينهما بحجارة صغيرة ممزوجة بالتربة. يختلف سمك هذه الجدران من مكان إلى آخر ويبقى متوسّطها يقدّر بـ 1 م. أما أطوالها فتكاد تكون غير متناهية المسار، وجدناها تتخلّل جل أرجاء مقبرة الكتف في شكل خطوط مستقيمة تارة ومنفرجة تارة أخرى، سرعان ما كانت تختفي وتتقطع وتعود في البروز ثانية (الصورة 14).

الصورة 14: خطوط حجرية مزدوجة بمقبرة الكتف.

توجيه المعالم:

هناك عدد من المعالم الجنائزية بمختلف أنواعها وأنماطها في كل المقابر المدروسة موجّهة بصورة واضحة نحو الجهة الشرقية بزاوية تنفرج وتتّسع من الجهة الشمالية الشرقية إلى غاية الجهة الجنوبية الشرقية وهي الواجهة الموافقة لطلوع الشمس في مختلف فصول السنة، فمن خلالها يمكن التعرّف على

القبور المنجزة في فصل معيّن من فصول السنة، ويكون هذا محصورا على الشخص أو الأفراد المدفونون في نفس الوقت داخل القبر الواحد، أمّا أولائك الذين دفنوا خلال إعادة أو مواصلة عملية الدفن داخل نفس القبر القائم من قبل، فيتعذّر علينا معرفة الشهر أو الفصل الذي ووري فيه التراب.

وهناك مظهر طبيعي آخر، كثير القداسة في العالم القديم و تبجيله مازال متواصلا إلى يومنا هذا لدى بعض الفئات والشعوب، يتمثّل حسب كامبس في الأشكال الطبوغرافية وبالدرجة الأولى في الجبال والصخور أيضا حتى ولو كانت هذه الأخيرة بسيطة[7].

وبناءا على هذه المعطيات التي تجسّد أهمية المرتفعات في المعتقدات القديمة والتي عثرنا على مخلّفات مادية واضحة تبيّن قداستها وتتمثّل في توجيه محاور غرف بعض المعالم الجنائزية بكدية القمح صوب قمم مرتفعة كجبل الشيليا أو المرتفعات المطلّة على الموقع مباشرة (الصورة 15 و16).

الصورة 15: غرفة تل جنائزي بكدية القمح موجّهة صوب قمّة بجبل الشيليا.

الصورة 16: محور مصطبة بكدية القمح موجّه نحو قمّة

[7] Camps G., Les Berbères, mémoire et identité. p. 144.